مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الأولى - العدد الثالث - مايو ٢٠٢٠م

جسر ثقافي بين هانكوك ومجمع اللغة العربية بالشارقة

اختتام فعاليّات الشارقة العاصمة العالمية للكتاب لعام ٢٠١٩/٢٠٢٠

دور القصص في تنمية اللغة لدى الطفل

أبو جعفر ابن النحاس «ومضات في فكره ومؤلفاته»

على أعتاب الموت: قصة شاعر جاهلي

تأدب النحاة مع الله عزَّ وجل

وقفة مع كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري

المتصاحبات اللغوية: وقفة مصطلحية

القاموس المحيط صورة غير نمطية

نسخة بي دي إف (PDF)

القاموس المحيط.. صورة غير نمطية

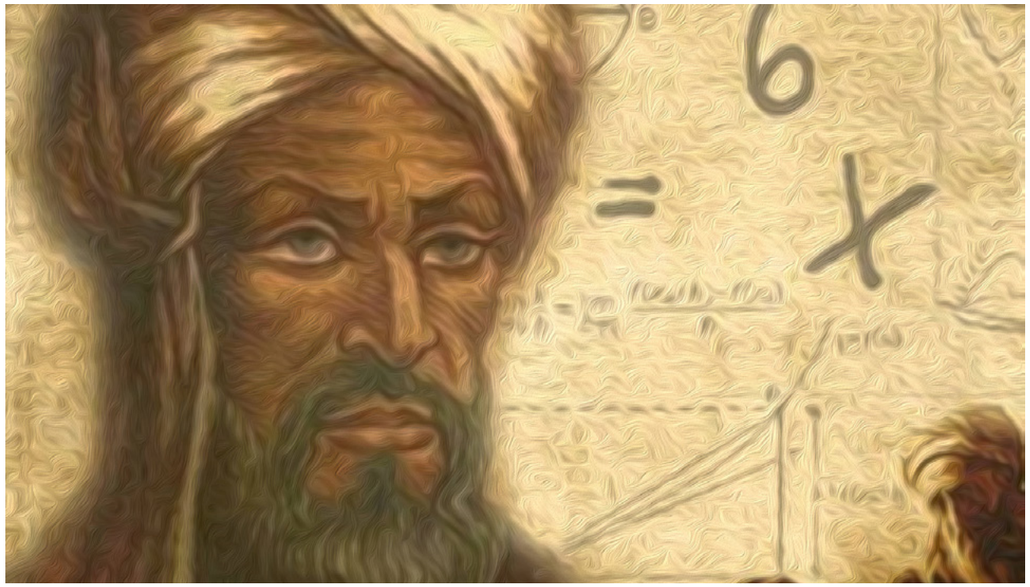

القاموس المحيط عَلَمٌ على واحد من أشهر المعاجم العربية، ألّفه القاضي واللغوي الكبير مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز آبادي (٧٢٩-٨١٧هـ/ ١٣٢٩ - ١٤١٥م) وسماه «القاموس المحيط، والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط»، والقاموس في الأصل لجة البحر كما فسّره المؤلف في مادته (ق م س)، أو «البحر الأعظم» كما علل به التسمية في ديباجته. وقد ألقى الله القبول عليه، ونَشَرَهُ ونَفَعَ به، حتى أصبح «القاموس» علمًا على المعجم أيا كان مجاله ومؤلّفُه؛ لذا فتعداد فضائله ومزاياه من باب تحصيل الحاصل.

بيد أن القاموس - مع قيمته العلمية وعلوّ كعب مؤلفه- عمل بشريٌّ، وقد «أبى الله أن يصح إلا كتابه»، ومن الطبيعي أن لا يخلو من ثغرات ومآخذ؛ بعضها من المؤلف، وبعضها نشأ من مرور الزمن وحيوية اللغة؛ لذا فقد آثرت أن أقف مع نماذج من تلك الاستثناءات التي تؤكد مكانة القاموس وفضل مؤلفه رحمه الله.

محمدو السالم جدو

عضو مجلس اللسان العربي بموريتانا

أستاذ علوم شرعية ولغوية

أولاً: مدلول الرموز

كغيره من المؤلفين وضع الفيروز آبادي رموزا لما يكثر تكرره؛ ولي توقف مع بعضها:

١. وضع إشارةً للموضع (ع)، وثانية للبلد (د)، وثالثة للقرية (ة)، والرابط بين الإشارات الثلاث تعلقها بالأرض، **وإن أعوزتها الدقة من وجهين:**

أ. تَدَاخُلُ الدلالة، أو تقاربها في أحسن الأحوال، وكونه لم يحدد مدلول كل منها لديه، وإنما ترك تحديده للعرف.

ب. الظرفية؛ فما كان خرابًا يبابًا في عصر المؤلف قد يصبح قرية، وما كان قرية قد يصبح مدينة، وكلاهما قد يصبح أثرًا بعد عين، وبذا يفقد التعريف خاصيته مع الزمن.

٢. أشار لكل مشهور بكونه معروفًا (م) استحضارا لأنّ «تفسير الواضح يزيده إشكالا»؛ لكن كثرة المعروفات قد تضع القارئ في حيرة من أمره؛ فإذا كان الماء معروفًا، والسيف معروفًا، والقط معروفًا، والناقة معروفة، فهل السيف هو الناقة، أم القط هو الماء..؟ الحل هو في تعريف كُلٍّ على نحو علمي.

ثم إنّ ما كان معروفًا في عصرٍ قد يصبح مجهولا في آخر، تبعا لاختلاف الأزمنة والأمكنة.. فإذا كان الرمح والخباء معروفين قديمًا، فقد اختلف الحال الآن؛ شأنهما شأن مفردات اختفت، وأخرى اكتسبت دلالات جديدة، ومن القسم الأخير (بالمعاني القديمة):

– القنبلة: الجماعة من الناس أو الخيل، جمعها قنابل.

– النيزك: الرمح القصير، جمعه نيازك.

– السيارة: المسافرون، وتكرر ورودها في القرآن العظيم، كقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] .

– القطار: ما تتابع من مُزْنٍ أوْ إبِلٍ أو غيرهما.

– الحانوت: دكان الخمّار، أو الخمار نفسه (بائع الخمر).

– القهوة: الخمر، وشدة الشبع، واللبن المحض.

– الغاز: من أسماء الأعلام، ومنه هشام بن الغاز (تابعي)، وربيعة بن الغاز (قيل بصحبته) رضي الله عنهما.

وكثيرًا ما عرّف امتداد مكان ما أو المسافة بينه وبين آخر بحساب الزمن؛ كأن يقول: ثلاثة أيام، وقد تغيرت وسائل السفر، ومن ثمّ تغيرت مدته، فصار يحسب بالدقائق ما كان يحسب بالأيام. ولو أنّه حدّد بأحد مقاييس المسافة (كما يفعل أيضا) لأمكن تحديد المكان في عصرنا الحاضر.

ثانياً: تأثير المنافسة

قصد الفيروزآبادي بيان فضل كتابه على صحاح الجوهري كما صرح به في ديباجته: «**وَلَمَّا رَأَيْتُ إِقْبَالَ النَّاسِ عَلَى صِحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّهُ فَاتَهُ نِصْفُ اللُّغَةِ أَوْ أَكْثَرُ؛ إِمَّا بِإِهْمَالِ الْمَادَّةِ، أَوْ بِتَرْكِ الْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ النَّادَّةِ، أَرَدْتُ أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاظِرِ بَادِئَ بَدْءٍ، فَضْلُ كِتَابِي هَذَا عَلَيْهِ، فَكَتَبْتُ بِالْحُمْرَةِ الْمَادَّةَ الْمُهْمَلَةَ لَدَيْهِ، وَفِي سَائِرِ التَّرَاكِيبِ تَتَّضِحُ الْمَزِيَّةُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ أَذْكُرْ ذَلِكَ إِشَاعَةً لِلْمَفَاخِرِ؛ بَلْ إِذَاعَةً لِقَوْلِ الشَّاعِرِ: كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ**».

وقد يأتي بما لا تفسير له لديه لإثراء مادة القاموس؛ كما في «ع ط ر س»إذ قال: «عُطْرُوسٌ، كعُصْفُورٍ، في شِعْرِ الخَنسَاء، في قولها: إذا تَخَالَفَ ظَهْرَ البيضِ عُطْرُوسُ

ولم يُفَسَّرْ. قاله ابنُ عَبَّادٍ، ولم نَجِدْهُ في ديوانِ شِعْرِهَا».

وقد راجعت أنا ديوانها فلم أجد الشاهد به، والله أعلم بفائدة إيراد لفظ لا يُعرف تفسيره ولم تثبت نسبته إلى قائل، إلا إذا كان لتقييده بالحمرة!! ومن هذا قوله: «جَحْلَنجَعُ (...) ذَكَرُوه ولم يُفَسِّروهُ».

ثالثاً: الإغراب

– في مادة «روح» قال الفيروز آبادي ﷺ متحدّثا عن معاني الرُّوح: «ومَلَكٌ وجْهُهُ كَوَجْهِ الإنسانِ وجَسَدُهُ كالملائكَةِ»، ومن المعلوم أن الملائكة روحانية ليست لها أشكال جسدية ثابتة حتى يمكن التشبيه بها.

– وفي مادة «ب ج د» يقول: «وأبْجَدْ، إلى قَرَشَتْ، وكَلَمُنْ رَئيسُهُم: مُلوكُ مَدْيَنَ، ووضَعوا الكتابَةَ العَرَبِيَّةَ على عَدَدِ حُرُوفِ أسمائِهِم، هَلَكوا يومَ الظُّلَّةِ، فقالت ابْنَةُ كَلَمُنْ:

كَلَمُنْ هَدَّمَ رُكْني
هُلْكُهُ وَسْطَ الْمَحَلَّهْ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أتَاهُ الْـ
ـحَتْفُ نَارًا وَسْطَ ظُلَّهْ
جُعِلَتْ نَارًا عَلَيْهِمْ
دَارُهُمْ كَالْمُضْمَحِلَّهْ

ثم وجَدُوا بعدَهُم: «ثَخَذْ ضَظَغْ فَسَمَّوْها: الرَّوادِفَ».

ومع ما في هذا التركيب مما لا يخفى فإن من دواعي العجب ورود مثل هذا عن أحد أعلام اللغة والقضاء وغيرهما لأسباب كثيرة، منها:

١– انقطاع السند وبُعْد الزمن بيننا وبين هؤلاء الذين لا ندري عنهم إلا ما جاءنا عن طريق الوحي، وليس منه هذا.

٢– أن الحروف إنّما هي رموز أصوات تتالى على نحوٍ ما للتعبير عن مرامٍ ما.

٣– أنه لا يعرف لسان ولد على هذا النحو الغريب؛ أحرى لسان اختاره الله لكتابه المعجز.

٤– أن العلماء اختلفوا هل اللغة العربية توفيقية أم توقيفية، ولكن أيا ممن يعتد به من الفريقين – في علمي– لم يزعم هذا الزعم الغريب.

٥– أنه لم يقل لنا بماذا كان مجتمع هؤلاء يتخاطب قبل ولادتهم وتسميتهم ثم تشكيل لغة من أسمائهم، وبأي لسان سُمُّوا..؟ إلخ.

٦– أن الأبيات تضمنت الضاد (المضمحلة)، والظاء (ظله)، ومقتضى الحكاية أنهما من حروف لم تكن قد وُجِدَتْ بعدُ.

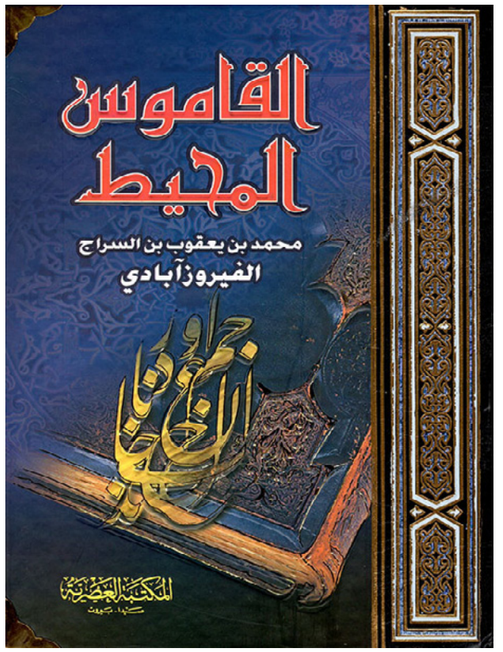

٧– أن الأبيات المذكورة شعر تام المقاييس (شكليا على الأقل، مجزوء الرمَل) ولا يمكن أن تكون لغتها في طور التشكل الأبجدي!!

ومع كل هذا أورد ما سبق دون أي تحفظ أو تمريض!!.

أما أصحاب مَدْيَنَ فقد وردت النصوص القطعية بوجودهم وببعض شأنهم.

وما أحسن قول ابن سلام فيمن يتقول مثل ما سبق: أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدَّاهُ منذ آلاف من السنين والله يقول: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم٥٠، ٥١]

(طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، ١٩٧٤، ١/ ٨ – ٩)

– وتبلغ الغرابة حدها الأقصى في مادة «ف ص ل» حين يقول: «ماتَ عُمَيْرُ بنُ جُندبٍ من جُهَيْنَةَ قَبْلَ الإسلامِ، فَجَهَّزوهُ بِجَهازِهِ، إذْ كَشَفَ القِناعَ عن رأسِه، فقالَ: أيْنَ القُصَلُ؟ (والقُصَلُ أحَدُ بني عَمِّه). قالوا: سبحان الله! مَرَّ آنفاً، فما حاجَتُكَ إليه؟ فقال: أُتيتُ فقيلَ لي لأُمِّكَ الهَبَلُ. ألا تُرَى إلى حُفْرَتِكَ تُنثَلُ. وقد كادَتْ أُمُّكَ تَثْكَل. أرأيتَ إنْ حَوَّلْناك إلى مُحَوَّلْ. ثم غُيِّبَ في حُفْرَتِكَ القُصَلْ. الذي مَشَى فاحْزَألْ. ثم ملأْناها من الجَندَلْ. أتَعْبُدُ رَبَّكَ وتُصَلْ. وتَتْرُكُ سَبيلَ من أشْرَكَ وأضَلْ؟ فقلتُ: نَعَمْ. قال: فأفاقَ، ونَكَحَ النِّساءَ، ووُلِدَ له أولادٌ، ولَبِثَ القُصَلُ ثلاثاً، ثم ماتَ ودُفِنَ في قَبْرِ عُمَيْرٍ».

وعلق عليه الزبيدي بالقول: «وَهَذَا الخبرُ قد رواهُ الشَّعبِيُّ بسندِهِ: أُغْمِيَ على رَجُلٍ من جُهَينَةَ، فلمّا أفاقَ قالَ: مَا فعَلَ القُصَلُ.. وحَكاهُ غيرُه، وَفِي السِّياقِ بعضُ اختلافٍ». فإذا كان الأمر إغماءً كما هنا، لا موتًا كما هناك، فلا إشكال.

رابعاً: متفرقات

– قد يأتي الفيروزآبادي بما يُوهم التقييد دون أن يكون الأمر كذلك، أو فيما فيه نظر، مع أنّ من الضروري في هذا المجال الدقّة والصرامة قدر الإمكان؛ ففي مادة «أ ز أ» قال: «أَزَأَ الغَنَمَ، كَمَنَعَ: أشْبَعَها»، وفي ذكر الغنم إيهام بتخصيص اللفظ بها، ولعله غير مقصود.

وفي مادة «ب د أ» يقول: «وبدأ مِنْ أرْضِه: خَرَجَ»، وظاهر هذا اللفظ تقييد البدء بكونه من أرض الفاعل، وهو ما تنطق الشواهد بعكسه.

– وقد يُقَدِّم المعنى المجازي على الحقيقي، كما في مادة «ف ي أ» حيث قال: الفَيْءُ: ما كانَ شَمْساً فَيَنسَخُهُ الظِّلُّ (...) والفيء الغَنِيمَةُ، والخَراجُ، والقِطْعَةُ من الطَّيْرِ، والرُّجُوعُ.. وأصل اللفظ الرجوع فكان ينبغي تقديمه.

وكقوله: الرَّجْمُ: القَتْلُ، والقَذْفُ، والغيبُ، والظَنُّ، والخليلُ، والنَّديمُ، واللَّعْنُ، والشَّتْمُ، والهِجْرانُ، والطَّرْدُ ورَمْيٌ بالحجارةِ، واسْمُ ما يُرْجَمُ به. (ر ج م) ومراعاة الحقيقة تقضي بتقديم الرمي بالحجارة على سائر معاني اللفظ. قال الجوهري: «الرجم القتل، وأصله الرمي بالحجارة».

– خلافا لما اطلعت عليه من المعاجم قد يكرر الفيروزآبادي التعبير في المادة الواحدة دون داع لذلك؛ ففي مادة «ح ل أ» يقول: «حَلأَهُ، كَمَنَعَهُ (...) وَحَلأَ فُلاناً كذا دِرْهَماً: أعطاهُ إيَّاهُ» وبعد كلام عطَفَ الرباعيَّ مُشَدَّدَ اللام قائلا: «وَحَلَّأه دِرْهَماً: أعْطاهُ إيَّاهُ» وكان يكفيه لو قال: «وَحَلأَ فُلاناً كذا دِرْهَماً: أعطاهُ إيَّاهُ، كحلَّأه» كما هو أسلوبه في مثل هذا.

وفي مادة «و ج ب» قال: وجب أكَلَ أكْلَةً واحدةً في النَّهارِ كأوْجَبَ ووجَّبَ إلى أن قال: «والوَجْبَةُ: السَّقْطَةُ مع الهَدَّة، أو صَوْتُ السَّاقِطِ، والأكْلَةُ في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، أو أكْلَةٌ في اليَوْمِ إلى مِثْلِها من الغَدِ».

– قد يجتزئ الفيروزآبادي ﷺ ببعض المعاني عن بعض كاقتصاره في مادة «ص ب ح» على الظرف وإغفاله المصدر الميمي، إذ قال: «والمُصْبَحُ، كمُكْرَم: مَوْضِعُ الإصْباحِ، ووَقْتُه». وفي «ف ر ق» أغفل ظرف الزمان في قوله: «والمُنفَرَقُ: يكونُ مَوْضِعاً ومَصْدَراً». وفي «ض م ر» قال: «وأضْمَرَه: أخْفاه، والموضعُ والمفعولُ: مُضْمَرٌ» فأغفل المصدر الميمي واسم المكان.. إلخ.

ختاما أقول: إنّ هذا المقال جاء خدمة للحقيقة، لكنّه يندرج في الثناء على الفيروزآبادي وقاموسه المحيط.

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها؟
كفى المرء نُبلا أن تُعد معايبه